الرضـــا
في العـاقبـة والمـآل

الرضا

في العاقبة والمآل

من المعلوم أن **الرِّضَا** في العاقبة له مقدماتُه من العمل الصالح في الدنيا، وأنَّ الذين تطيب نفوسُهم بالجزاء في الآخرة هُم الذين أحسنوا في الدنيا.

ومَن عرف للعاقبةِ قَدْرها، لَمْ يُلْهِهِ شيء عن التعلُّقِ بها، والحرصِ على إحرازِ أسبابها.

وكان رضاه بالعاقبة ذا تأثيرٍ بالغٍ في ذاتِ نفسه ومعاملة غيره.

ولكُلِّ شيء عاقبتُه، ولكُلِّ عملٍ جزاؤه.

وعاقبة الأعمال تختلفُ باختلاف الأعمال ذاتِها، وباختلاف مقاصدها وغايتها.

فمَن عَمِلَ الخيرَ وَسَعَى له، غيرمَن أراد الشَّرَّ وَعَمِلَ به.

والرضا هناك لا يكون إلاَّ لِمَنْ حَسُنَت عاقبته، ولا يجد الإنسانُ هناك إلاَّ ما عَمِل.

وذاك ما حَكَمَ به اللهُ وذَكَّر به في كتابه.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.[1]

---

(1) الزلزلة: ٧، ٨.

العاقبةُ واقعةٌ لا محالةَ، وهي لله وحده، ولله عاقبةُ الأمور.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾.[1]

وهنا يكون **الرِّضَا** في العاقبة ثمرة إسلام وإحسان، ويكون الخُسران فيها جزاء عُتُوٍّ وطغيان.

والعاقبةُ عندما تُذْكَر ـ هكذا ـ في القرآن الكريم دون إضافةٍ، لا تكون إلاّ للمتقين. وعندما تُذْكَر مضافة فهي بحسب ما تُضَافُ إليه.

﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.[2]

﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾.[3]

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.[4]

وإنْ أُضيفتَ إلى « الدَّار » فهي للذين اتقوا، وهم أهلُ الفوز والنجاة.

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

---

(1) لقمان: ٢٢.

(2) هود: ٤٩.

(3) طه: ١٣٢.

(4) القصص: ٨٣.

سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.[1]

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.[2]

وعُقْبَى الدَّار (الجنة)، بل (جنات عَدْن) إقامة وخلود.

﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.[3]

وعاقبةُ الأمور قد تقعُ في الدنيا، وقد تقع في الآخرة.

وما يقعُ في الدنيا من: ظُلمٍ، وفسادٍ، ومَكْرٍ، وكُفْرٍ، وتَكذيبٍ بآياتِ الله، تُرَى عاقبتُه في الدُّنيا.

وساحةُ الحياة الدنيا مليئةٌ بدمارٍ وهلاك.

ومداولةُ الأيام بين الناس تحكي للناس سُنَنَ الله في خَلْقِهِ، وتُريهم ما وقَعَ بالظالمين والمكذبين مِن قبلهم.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.[4]

---

(1) الرعد: ٢٢.

(2) الرعد: ٢٣، ٢٤.

(3) الرعد: ٣٥.

(4) آل عمران: ١٣٧.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.[1]

وَمَنْ أَصَرَّ على ظُلم أُخِذَ به، وكان عِبْرةً وعِظَةً لِمَن بَعْدَه.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾.[2]

وإذا وقع الدَّمارُ بقومٍ، وأُخِذوا بذنوبهم ومعاصيهم، كان حسابُهم وجزاؤهم ـ من بعد ذلك ـ أنكرَ وأشدّ.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ ﴾.[3]

فالموتُ ليس عاقبةَ المطافِ للظالمين، والدمارُ في الدنيا ليس هو عاقبةُ كُلِّ شيء، بل هو مقدمة لِخُسرانٍ وعذابٍ مُقيم.

---

(1) القصص: ٤٠.

(2) فاطر: ٤٤.

(3) الطلاق: ٨ – ١٠.

والموتُ لهؤلاء أهونُ مِمَّا بعده، وإن كان أشدَّ مِمَّا قبله.

﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾.[1]

من هُنا كانت الدعوةُ إلى العاقبة والعملِ لها هو منهجُ القرآن الذي يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم؛ لتسلم الأُولى من ظُلم وفسادٍ، وتسلم الأُخرى من سُوءِ عاقبةٍ وخُسران.

وإذا عَرَفَ الناسُ عاقبةَ الأعمال فقد بَطُلَت المعذرةُ، وانقطعت الحُجَّةُ.

ومن أجل ذلك حُفِظَ القرآن، وَعُرِفَ البيان.

ولم يبق للناسِ إلاَّ أن يختاروا لأنفسهم ـ وقد أُعذَروا وأُنذَروا، وقد جاءهم من الله نورٌ وكتابٌ مبين ـ لم يبق لهم إلاَّ أن يختاروا لأنفسهم ـ طائعين ـ ما يترتبُ على أعمالهم، محسنين أو مسيئين.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾.[2]

والعاقبةُ هي (الجنةُ) لمن اتَّقَى وأحسَنَ.

وفيها يكون الرضوان والنعيم المقيم.

وتلك هي « عَاقِبَةُ الدَّار ».

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ

(1) طه: ١٢٧.

(2) النجم: ٣١.

كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.[1]

وهنا يكون **الرِّضَا** ـ في العاقبة والمآل ـ خالصاً سائغاً، لا يشوبه كَدَرٌ ولا نَصَبٌ، ولا خوفُ شقاءٍ وحِرمان.

وهذا ما يُنادى به أَهْلُ الجنة.

نسألُ اللهَ ـ تعالى ـ أن يجعلنا من أهلِها.

ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال:

يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَدًا..

وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَدًا..

وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَدًا..

وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْتَئِسُوا أَبَدًا..

فَذَلِكَ قَوْلُهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[2] ».[3]

وفي الحديث المتفق عليه، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

---

(1) النحل: ٣١، ٣٢.

(2) الأعراف: ٤٣.

(3) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: « يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ».

فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ.

فَيَقُولُ: « هَلْ رَضِيتُمْ ؟ ».

فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ؟

فَيَقُولُ: « أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ »

فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شيء أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟

فَيَقُولُ: « أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » [1]

تلك هي العيشةُ الرَّاضية التي ذكرها الله في سورتي "الحاقة" و "القارعة" حيث قال:

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ ﴾. [2]

وقال: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا

---

(1) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(2) الحاقة: ١٨ – ٢٥.

مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.[1]

إنَّ **الرِّضَا** يتَّسِعُ مَدَاهُ، فيشمل ما كان من سَعْيٍ في الدنيا، وما يكون من نعيمٍ مقيمٍ في الآخرة.

ولا يدع صاحبَه في موتٍ أو احتضار.

نجد دلالة ذلك في سورتي "الغاشية" و "الفجر":

ففي سورة "الغاشية":

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾.[2]

وفي سورة "الفجر":

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.[3]

فهل من هِمَّةٍ عاليةٍ تنشُد **الرِّضَا** في جميع المواطن والأحوال؟

إنَّ ذلك يستلزمُ التمسُّكَ بأمرين عزيزين في مُعْتَرَك الحياة:

التُّقَى.. والصَّبْرُ ..

---

(1) سورة القارعة.

(2) الغاشية: ٨ – ١١.

(3) الفجر: ٢٧ – ٣٠.

فإنهما مِفتاحُ حُسْنِ العواقب في العاجلة والآخرة.

وهما جِمَاعُ كُلِّ خيرٍ وبِرٍّ..

وسبيلُ كُلِّ نَصْرٍ وفَوْزٍ..

وبهما يُرَدُّ كُلُّ مكر وكيد.

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.[1]

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾.[2]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.[3]

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.[4]

إن **الرِّضَا** في العاقبة والمآل مرتبطٌ بإيثارِ الباقيات الصالحات في الدنيا، ولا يكون ذلك إلاَّ لِمَن خاف مقامَ رَبِّه، ونَهى النفسَ عن الهوى.

عندئذ تستروح النفسُ - بصبرها وتقواها - في مواجهة الشدائد والمكاره، وهي تُسَبِّحُ بحمد ربِّها آناء الليل وأطراف النهار، فترى خيرها فيما تدخره هناك، لا فيما تملكه هنا من زينة أو متاع..

فيكون الصَّبْرُ مُعيناً على الثَّبات حتى الممات.

---

(1) آل عمران: ١٢٠.

(2) آل عمران: ١٨٦.

(3) آل عمران: ٢٠٠.

(4) يوسف: ٩٠.

وتكون التَّقْوَى واقيةً من الْمُحْبطات والمبطلات والمهلكات.

وَنِعْمَ الصبرُ صَبْرُ العِزَّةِ والقُوَّةِ والثَّبات وحُبِّ المكارم.

ونِعْمَتِ التقوى للإنسان حين يكونُ له منها خَيْر زادٍ في المغارم والمغانم.

وليست التقوى قولاً بلا عَمَلٍ، أو سَلْباً وَبُعْداً عن مُعْتَرك الحياة.

وليس الصبر ضَعْفاً أو هَوَاناً وهو يُستمد من حُسن الصلة بالله.

روى البخاريُّ، عَنْ عَلِيٍّ - رضي الله عنه - أَنَّ فَاطِمَةَ - رضي الله عنها - شَكَتْ مَا تَلْقَى فِي يَدِهَا مِنَ الرَّحَى، فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ؛ تَسْأَلُهُ خَادِمًا، فَلَمْ تَجِدْهُ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ.

قَالَ: فَجَاءَنَا، وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْتُ أَقُومُ

فَقَالَ: « مَكَانَكِ ».

فَجَلَسَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِي

فَقَالَ: « أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا، أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا، فَكَبِّرَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ. فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ ».[1]

قَالَ عَلِيٌّ - رضي الله عنه -: « مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ».

فقِيلَ لَهُ: وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينَ ؟

قَالَ: « وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينِ ».[2]

---

(1) البخاري: كتاب الدعوات.

(2) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة.

أرأيت ـ أخي ـ كيف يكون إيثارُ الباقيات الصالحات ؟

يأمر الرسولُ ﷺ بالتمسك بها والحرص عليها؛ فهي خير مِمَّا يسأله الإنسانُ من حاجات الدنيا وزينتها التي تذهب ولا تبقى.

أخرج الطبرانيُّ، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً:

« سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله، هُنَّ الباقياتُ الصالحات ».[1]

وأخرج النسائيُّ، عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مُعَقِّبَاتٌ [2] لاَ يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ.

يُسَبِّحُ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَيَحْمَدُهُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَيُكَبِّرُهُ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ ».[3]

إن الموازنةَ بين الباقيات والذاهبات، بين ما يبقى وما يَفْنَى، أمرٌ يحتاج إلى بصيرةٍ وحُسْنِ تدبر؛ ليكون اختيارُ الإنسان وإيثارُه ما يبقَى فِطْرِيًّا لا تكلُّفَ فيه، وإيماناً لا رهبانيةَ معه.

والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ رحمةً بِخَلْقِهِ يُعينهم على ما دعاهم إليه، من إيثار الباقيات الصالحات، بآيات بيِّنَات في أنفسهم، وفي الآفاق من حولهم.

وقد حَفِظَ لهم ما أنزل من كتاب؛ ليكونوا ـ دائماً ـ على بصيرةٍ

---

(1) المعجم الكبير: ٦/٥١.

(2) سُمِّيت "معقبات" لأنها تُعاد مرَّة بعد مرة، أو لأنها تُقال عقب الصلاة. والعَقِب من كل شيء: ما جاء عقب ما قبله (راجع: شرح السيوطي على سُنن النسائي ٣/٧٥)

(3) النسائي: كتاب السهو.

فيما يختارون لأنفسهم أو يعلمون.

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.[1]

فليوازن مَن شاء بين الزينة والقيمة.

والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لم يَنْهَ عن الاستمتاع بالزينة في حُدود الطيبات

ولكن الموازنة ـ هُنا ـ تقتضي ألاَّ نجعل من الزينة قيمةً نَزِنُ بها الناسَ، ونعرف أقدارَهم.

إنها « زِينَةٌ » وكفى !

والزِّينةُ تذهبُ، والقيمةُ تبقى.

وَرُبَّما رأينا رَجُلاً ليسَ له من الزِّينةِ شيئاً، ولكن له من القيمة ما يثقل ميزانه.

الموازنة الصادقة ـ هنا ـ تجعلنا نعرف قَدْرَ هذا وذاك على أساس مِمَّا يبقى، لا بالنظر إلى ما يذهب ويفنى.

فقد يكون هذا خيراً من ملءِ الأرض من مثلِ ذاك.

كما جاء في الحديث المتفق عليه، عَنْ سَهْل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَقَالَ: « مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ »

---

(1) الكهف: ٤٦.

قَالُوا: حَرِيٌّ [1] إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ.

قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ. فَمَرَّ رَجُلٌ مِنَ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ

فَقَالَ: « مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ »

قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْتَمَعَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا ».[2]

والذين آثروا الباقيات الصالحات قد أحسنوا الموازنةَ، فأخلصوا مع أنفسهم في الاختيار، ورضوا بالقيمة التي تبقى مهما واجه صاحبُها في الدنيا من متاعب ومصاعب.

جاء رجلٌ إلى أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ فقال: « أوصني ».

فقال: « اذْكُر اللّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في السَّراء يَذْكُرْكَ في الضَّراء، وإذا أشرفْتَ على شيء من الدنيا فانظر إلى ماذا يصير »[3]

فليعرف الإنسانُ مصيرَ ما يرجوه وما تتعلق نفسُه به..

وليزنه بميزان حقٍّ وصِدق.

وفي الأرض عِبَرٌ وعظات تحثُّ الناسَ على أن يختاروا لأنفسهم الباقيات الصالحات. فالذين جمعوا كثيراً، وأَمِلوا بعيداً أينَ ذهبوا ؟ وإلى

---

(1) أي: جَديرٌ وخَليق.

(2) البخاري: كتاب النكاح.

(3) صفة الصفوة: ٦٢٩/١.

أين وصلوا ؟

« أَلاَ إنَّ قَوْماً بَنَوْا مشيداً، وجمعوا عَتِيداً، وأَمِلوا بعيداً، فأصبح بُنيانُهم قبوراً، وجَمْعُهم بُوراً، وأَمَلُهم غُروراً ».

ذاك ما تُخبرنا به وقائعُ الحياة، وتُرينا إيَّاه.

فلا غرابةَ أن نسمع أبا الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول:

« ابنَ آدم، طَأ الأرضَ بقدمِك؛ فإنها عمَّا قليل قبرك.

ابنَ آدم، إنما أنت أيامٌ، فكلما ذهبَ يومٌ ذهبَ بعضُك.

ابنَ آدم، إنك لم تزل في هَدْمِ عُمْرِك منذ ولدتك أُمُّك »

هذا الكلام ليس وَعْظاً يُراد به ترقيقَ القلوب فحسب، وإنما هو كلامُ حقٍّ وصِدق يُرادَ به أن يُحسنَ الإنسانُ إلى نفسه في اختيار ما يرضاه لِحُسن عاقبته.

وفي الدنيا يقعُ الاختبارُ في ملحمةِ الابتلاء والفتنة، ولن يسلم الإنسانُ من فتنٍ مَوْجُها كالجبال إلاَّ إذا سَلِمَ من هَوى نفسه، وخاف مقامَ ربِّه، ورأى ما عنده، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

عندئذ يكون رضاه عن الله مُمتدّاً في جميع مراحله، في دُنياه، وعند فِراقِها، وعندما ينظر كُلُّ امرئٍ ما قدَّمت يداه.

وويل لِكُلِّ جَمَّاعٍ فَاغِرٍ فَاهُ، كأنَّه مجنون يرى ما عند الناس، ولا يرى ما عند الله!

عن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ قال:

احْفَظُوا مِنِّي مَا أَقُولُ لَكُمْ . سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِذَا

كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ.

وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ.

وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ.

وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ.

وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا.

وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا.

وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ.

وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ.

وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ

إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ ».[1]

أرأيت ـ أخي القارئ ـ دلالةَ هذه الكلمات، وما توحي به هذه الدعوات..

إنها تُرشدك إلى أن تأخذَ نفسك بأسباب الباقيات الصالحات، وأنت تعمل في دُنياك بثباتٍ ورُشدٍ في مرضات ربِّك.

فتطيب لك دُنياك بسلامة قلبٍ، وصِدقِ لسان.

وتسلم لك آخرتُك برحمةٍ من ربِّك ورضوان.

وأنت تسأله وتعوذ به وتستغفره آناءَ الليل وأطراف النهار، واثقاً، خائفاً، راجياً، توقِنُ أنَّ ما أنت فيه مِنه وإليه، وأنك له، وأنك ـ لا محالةَ

(1) أحمد: مسند الشاميين.

- راجعٌ إليه.

فلا ترضى إلاَّ بما رضيَ..

ولا تؤثرُ إلاَّ ما أحبَّ..

ولا تكون إلاَّ حيث يرضى ويحب.

عندئذ يكون رضاكَ مرتبطاً برضاه..

ومَسْعَاكَ محمودٌ بخشيته وتقواه.

وصبرُك على المكاره صَبْرُ مَن يعرف غايته ومبتغاه.

وذاك ما كان من أمر عليٍّ وفاطمةَ - رضي الله عنهما - وهما يؤمَران بما هو خَير.

فيحرصان عليه، ويكتنزان منه، ولا ينقطع ذلك منهما، ولا يُشغلان عنه.

وكذلك يكون حال مَن رَضِيَ عن ربِّه، وآثر رِضَاه، وهو يُوقِنُ بلقائه، ويرجو رحمته، ويخشى عذابه.

عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال:

ما انتفعت بكلام أحدٍ بعد رسول الله ﷺ كانتفاعي بكتاب كتب به إليَّ عليُّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - فإنه كتب إلى يقول:

أما بعد: فإن المرءَ يسوءه فوتُ ما لم يكن ليُدركه.

ويَسُرُّه دَركُ ما لم يكن ليَفوته.

فليكن سرورُك بما نِلْتَ من أَمْرِ آخرتك.

وليكن أَسَفُكَ على ما فَاتَكَ منها.

وما نِلْتَ من دُنياك فلا تُكْثِرَنَّ به فرحاً.

وما فاتك منها فلا تَأْسَ عليه حُزْناً.

وليكن هَمُّكَ فيما بعد البعد ».

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قَالَتْ:

« كُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ، لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي، مَا تُخْطِئُ مِشْيَتُهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا، فَلَمَّا رَآهَا رَحَّبَ بِهَا، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِابْنَتِي. ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ سَارَّهَا، فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا، سَارَّهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ.

فَقُلْتُ لَهَا: خَصَّكِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسِّرَارِ ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ!

فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهَا: مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللَّهِ؟

قَالَتْ: مَا كُنْتُ أُفْشِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِرَّهُ.

قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكِ ـ بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الْحَقِّ ـ لَمَا حَدَّثْتِنِي مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟

فَقَالَتْ: أَمَّا الآنَ فَنَعَمْ، أَمَّا حِينَ سَارَّنِي فِي الْمَرَّةِ الأُولَى فَأَخْبَرَنِي أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ الآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لاَ أُرَى الأَجَلَ إِلاَّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي؛ فَإِنَّهُ نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ.

قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَّنِي الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: يَا فَاطِمَةُ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ

سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ ؟ .

قَالَتْ: فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتِ ».[1]

متى ضَحِكَتْ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ ؟ ومتى بَكَتْ ؟

بَكَتْ عندما علمت أنَّ والدَها ﷺ قد حضر أجلُه، وَحُقَّ لها أن تبكي وهي التي قالت لما ثَقُلَ النبيُّ ﷺ وجعل يتغشَّاه:

« وَاكَرْبَ أَبَتَاهْ »

فَقَالَ لها ﷺ: « لاَ كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ ».[2]

فَلَمَّا مَاتَ ﷺ قَالَتْ: « يَا أَبَتَاهْ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ، يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ ».[3]

فَلَمَّا دُفِنَ ﷺ قَالَتْ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ: « يَا أَنَسُ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ ؟! ».[4]

ومتى ضَحِكَت ـ رضي الله عنها ـ ؟

ضحكتْ لَمَّا أُخبرت بما تلقاه عند ربِّها، وقال لها ﷺ:

« أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ ؟ »

هنا **الرِّضَا** ـ كل الرضا ـ في العاقبة والمآل، لِمَن رضوا عن الله

(1) مسلم: كتاب فضائل الصحابة.

(2) ابن ماجة: كتاب الجنائز.

(3) البخاري: كتاب المغازي.

(4) البخاري: كتاب المغازي.

ورضي الله عنهم.

فاحرصْ - أخي - أن تكونَ منهم، ولا تكن من أولئك الذين يضحكون مِلءَ أفواهِهم وهم لا يدرون إن كان ربُّهم راضٍ عنهم أو ساخط عليهم.

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.[1]

فاحفظ صفاتِ هؤلاء، وكُنْ منهم، واستعِنْ بالله.

واحفظ ما قاله لقمانُ لابنه؛ لتنعم **بالرِّضا** في دُنياك وأُخراك.

اثنان لا تنسهما قط: اللهَ، والدَّار الآخرة..

واثنان لا تذكرهما قط: إحسانُك إلى الناسِ، وإساءةَ الناس إليك.

* * *

(1) التوبة: ٧١، ٧٢.